الدرس البلاغي في كتاب مجاز القرآن, لأبي عبيدة
The lesson of the rhetorical in the Book of Majaz al Quran, for Abu Ubaida

د.أحمد كامش
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية– قسنطينة
kamecheahmed86@gmail.com

تاريخ الإرسال:2018/07/24	تاريخ القبول: 2018/10/05	تاريخ النشر: 2018/11/17

ملخص البحث

مرّ علمُ البلاغة بمراحل مختلفة إلى أن تحدّدت معالمه، واستُقرِئَت قواعده، وقد مثّلَ كلَّ مرحلة من هذه المراحل عددٌ من الدارسين المبرّزين الذين أسهموا في تأسيس العلم وتطويره، واجتهدوا في وضع النظريات والتصوّرات والمصطلحات التي تخصّه وتحدّه، وقد كانت أولى هذه المراحل تلك التي عُنيت بتسجيل الملحوظات، ومثّلها عددٌ من الأدباء والعلماء الأعلام من أبرزهم أبو عبيدة [208 هـ] في كتابه مجاز القرآن.

عرض أبو عبيدة في كتابه الكثير من المسائل البلاغيّة وخاصّة المتعلّقة منها بعلم البيان، وكشف أن الكثير من المسائل تتخفّى وراء المجاز، وأظهر أنّ له قدم راسخة في مجال البحث البلاغي بما يؤهّل كتابه ليكون باكورة الدّرس البلاغي.

أظهرت الدراسة أنّ أبا عبيدة لم يستفد من تجارب سابقة في مجال البحث البلاغي وأغلب القضايا فيه من مبتكراته، لذلك حُقّ للكتاب والمصنّف أن ينالا الحُظوة التي نالاها.

الكلمات المفتاحية: مجاز القرآن . الدّرس البلاغي . أبو عبيدة . التفسير البلاغي. التفسير اللغوي.

Abstact :

The rhetoric science moved at different chronical stages to define it s features and to extraploteit s rules. each stage of these stages presented by a number of prominent fuiguers andscholars who spend the wihole of their time in developing ,and establishing this science they develop theories , concepts, and terminologies ,which have relation with it . Among these

scholars we have Abu .Obeida(208) in his book (KORAN METUPHOR) he showed in his book that a lot of rhetorical question especially those which have relation knowledge of the statement seience are hiding behind metaphor and he showed that he has big impact in this field of study that's why his book considered as the basic unit of the rhetoric lesson.
The study showed that Abu Obeida didn't benefit from the previous experiences in his research and the most of rhetoric issues from his creation in term of self-study and self-work that's why the book and thetake this prominent place in the science of the rhetoric history .
Keywords: Quran recitation lesson Abu Abaida interpretation of the rhetorical. Interpretation of language.

توطئة

مرّ الدرس البلاغي العربي بمراحل مختلفة إلى أن تحدّدت معالمه، واستُقرِئَت قواعده، وقد مثّلَ كلَّ مرحلة من هذه المراحل عددٌ من الدارسين المبرّزين الذين أسهموا في تأسيس علم البلاغة وتطويره، واجتهدوا في وضع التصوّرات والمصطلحات التي تخصّه.

عُنِيت أولى هذه المراحل بتسجيل الملحوظات، ومن علماء هذه المرحلة أبو عبيدة معمر بن المثنّى [ت 209 هـ] والجاحظ [ت 255 هـ] وابن قتيبة [ت 276 هـ] وغيرهم، ثمّ ارتقى مستوى الدرس البلاغي بعد ذلك ليهتمّ بالدراسات ذات الطابع الأدبي والعلمي المميّز، وظهر يومها عددٌ من الدارسين الذين عنوا بدراسة الإعجاز القرآني مع السعي إلى الكشف عن خصائصه اللغوية من أمثال الرمّاني [ت 386 هـ] والباقلاّني [ت 403 هـ] والخطّابي [ت 388 هـ]، ومنهم من اهتمّ بدراسة الأدب بصورة عامة أمثال قدامة بن جعفر [ت 337 هـ]، وعبد الله بن المعتز [ت 296 هـ] وأبو هلال العسكري [ت 395 هـ]، والشّريف الرضيّ [ت 406 هـ]

ولما كان أبو عبيدة معمر من الروّاد في مجال الدّراسات البلاغيّة، فقد حاولت أن أتلمّس ملامح الدّرس البلاغي عنده من خلال كتابه مجاز القرآن.

فما المراد بالمجاز ؟ وما الدّافع لتصنيف الكتاب ؟ وهل هو كتاب لغة أم تفسير أم بلاغة ؟ وما هي الإضافات التي أضافها؟

المبحث الأوّل: بين يدي مجاز القرآن لأبي عبيدة

عندما صنّف أبو عبيدة كتابه " مجاز القرآن " لم تكن مصطلحات البلاغة قد اتّضحت تماما، ولم يستقرّ عليها أمر العلماء، لذلك جاءت المباحث البلاغيّة فيه متفرّقة غير ملتزمة بالمصطلحات التي عرفت فيما بعد، فهو لم يقصد بالمجاز في كتابه هذا الصورة البيانيّة بالمفهوم المتعارف عليه، والذي هو ضدّ الحقيقة، بل أراد به مدلول الكلمة سواء أكان حقيقة أو غير حقيقة، وأبان فيه عن طريقة الوصول إلى فهم معاني القرآن باحتذاء أساليب العرب في الكلام، وسننهم في طرق الإبانة عن المعاني ووسائلها عندما تبيّنت له حاجة النّاس إلى ذلك، وقد أشار ابن تيميّة إلى ذلك حين قال: " المشهور أنّ الحقيقة والمجاز من عوارض الألفاظ، وبكلّ حال فهذا التّقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة، ولم يتكلّم به أحد من الصّحابة ولا التّابعين لهم بإحسان، ولا أحد الأئمّة المشهورين في العلم كمالك والثوري والأوزاعي وأبي حنيفة والشّافعي، بل ولا تكلّم به أئمّة اللّغة والنّحو كالخليل وسيبويه وأبي عمرو بن العلاء ونحوهم. وأوّل من عرف أنّه تكلّم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنّى في كتابه، ولكن لم يَعْنِ بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة وإنّما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية."[1] فهو بذلك من أوائل الذين سمّوا كتابهم بالمجاز، وإن كان الظّاهر عليه كونه كتاب لغة وتفسير لا كتابا مخصّصا للبلاغة والبيان دون غيرهما من العلوم كما يُوهِم العنوان.

ذكره ابن خير [575 هـ] في فهرسته في جملة ما رواه عن شيوخه، رحمهم الله، من الدّواوين المؤلّفة في علوم القرآن، من ذلك القراءات وما يتّصل بها، قال: " كتاب المجاز لأبي عبيدة معمر بن المثنّى التّميمي، تيم قريش، مولى لهم وهو أوّل كتاب صنّف في غريب القرآن فيما ذكر بعض المشيخة رحمهم الله."[2] وقريب منه ما نقله الزّبيدي عن مروان بن عبد الملك، قال: " سألت أبا حاتم عن غريب القرآن لأبي عبيدة الذي يقال له المجاز."[3]

وقد عرف القدماء، وحتّى الخصوم منهم، لأبي عبيدة علوّ منزلته في علوم اللغة ومعرفته الواسعة بغريبها، نقل الزّبيدي عن أبي حاتم قوله: " كان الأخفش قد أخذ كتاب أبي عبيدة في القرآن، فأسقط منه شيئا وزاد شيئا، وأبدل منه شيئا. قال: أبو حاتم: فقلت له: أيّ شيء هذا الذي تصنع ؟ من أعرف بالغريب أنت أو أبو عبيدة ؟ فقال: أبو عبيدة."[4]

كانت هذه الأقوال وغيرها، في تقديري، هي ما دفع بالمستشرق التركي محمد فؤاد سزكين، محقّق كتاب مجاز القرآن إلى القول: " ومهما كان الأمر فإنّ أبا عبيدة يستعمل في تفسيره للآيات هذه الكلمات: مجازه كذا، وتفسيره كذا، ومعناه كذا، وغريبه، وتقديره، وتأويله على أنّ معانيها واحدة أو تكاد. ومعنى هذا أنّ كلمة المجاز عنده عبارة عن الطّريق التي يسلكها القرآن في تعبيراته، وهذا المعنى الذي حدّده علماء البلاغة أعمّ بطبيعة الحال من المعنى حدّده علماء البلاغة لكلمة المجاز فيما بعد"[5] وبذلك يكون أبو عبيدة قد نحا في كتابه منحى لغويّا خالف فيه ما عرف عن سابقيه من المفسّرون، حتّى ظنّوا به الظّنون، قال أبو حاتم: " إنّه أخطأ وفسّر القرآن على غير ما ينبغي."[6]

دافع أبو عبيدة عن كتابه دفاعا مستميتا، وأكّد أنّه وضعه على قواعد العرب ومنهجهم في الكلام، وهذا ما يفهم من الحوار الذي دار بينه وبين أبي عمر الجرمي، قال: " أتيت أبا عبيدة بشيء منه فقلت له: عمّن أخذت هذا يا أبا عبيدة، فإنّ هذا خِلاف تفسير الفقهاء؟ فقال لي: هذا تفسير الأعراب البوّالين على أعقابهم، فإن شِئت فخذه وإن شئت فذره."[7] وبلغ أبا عبيدة أنّ الأصمعي يعيب عليه تأليفه كتاب المجاز، وأنّه يقول: يتكلّم في كتاب الله برأيه، فسأل عن مجلس الأصمعي في أيّ يوم هو، فجاءه في ذلك اليوم وجلس عنده وحادثه ثم سأله عن قوله في الخبز، أيّ شيء هو ؟ فأجابه بأنّه ما نأكله ونخبزه. قال أبو عبيدة: قد فسّرت كتاب الله برأيك، فإنّ الله تعالى قال: ﴿ أحمل فوق رأسي خبزا ﴾ يوسف. 26 فقال الأصمعي: هذا شيء بان لي فقلته؛ لم أفسّره برأي. فقال أبو عبيدة: والذي تعيب علينا كلّه شيء بان لنا فقلناه ولم نفسّر برأينا. وقام فركب حماره وانصرف.[8]

كان هذا المذهب الذي ذهب إليه أبو عبيدة في وضع الكتاب السبب في تنازع كل من النحو والبلاغة والتفسير فيه، إذ أراد كلّ علم أن ينسب الكتاب لنفسه. ولعل موضوعه ومحتواه من جهة، ومكانة صاحبه في ذلك العصر من جهة ثانيّة السبب في هذا التّنازع، إذ يستجيب موضوعه للنحو والبلاغة والتفسير وغيرها من المعارف.

كان أبو عبيدة لا يتوسّع في تفصيل المباحث البلاغيّة؛ لكنّ مجاز القرآن يُعدّ من بواكير الجهود المبذولة للكشف عن إعجاز القرآن وبيان بلاغته.

وقبل الوقوف على بعض قضايا المجاز، من منظور بلاغيّ، التي تعرّض لها أبو عبيدة في كتابه، من المهمّ أن نقف مع الكاتب وكتابه؛ ولنحاول أن نتعرّف على أبي عبيدة، وعن الظروف ألتي دفعته إلى تصنيفه.

مع أبي عبيدة مصنّف كتاب مجاز القرآن.

أبو عبيدة معمر بن المثنّى التّيمي، علاّمة بصري،[9] كان الغريب أغلب عليه، وأخبار العرب وأيّامهم، وكان مع معرفته ربّما لم يُقم البيت إذ أنشده حتّى يكسره، ويخطئ إذا قرأ القرآن نظرا، وكان يبغض العرب، ألّف في مثالبها كتابا، ويرى رأي الخوارج. مات سنة عشر أو إحدى عشر ومائتين.[10]

أثير حوله، قديما وحديثا، جدل كبير، سببه ماعُرِف عنه من علم ودراية وأصالة وخطورة، انطلاقا من إسهامه في مجال الدرس القرآني. والمتمعّن في سيرته تنكشف له خلفيات هذا الجدل:

. فهو فارسي الأصل، تعصّب لأعجميته، وكان أحد زعماء الحركة الشعوبية، يبغض العرب، ويصنّف الكتب في مثالبهم،[11] سخّر علمه وثقافته في الطعن عليهم وفضح مثالبهم، ومع ذلك نقل عن عليّ بن المدينيّ أنّه يصحّح روايته، وقال عنه: " كان لا يحكي عن العرب إلاّ الشّيء الصّحيح "[12]

. وهو يهوديّ الأجداد،[13] وإن كانت عناصر الثقافة اليهودية لا أَثَر لها في كتابه مجاز القرآن.[14]

. نُسب إليه الميلُ إلى مذهب الإباضية،[15] كما نُسب إليه القول بالقدر كذلك.[16]

. جَمَعَ صفاتِ نفَّرت الناسُ منه، فهو شتّامٌ بذيء اللسان، على دراية بالنسب، وَسِخٌ، مدخولُ الدين، ولما مات لم يحضر جنازَتَه أحدٌ لشراسة طبعه.[17]

. ومع كلّ ما قيل عنه فقد كان واسع الإلمام بعلوم العربيّة " عالما بأيّام العرب وأخبارهم وأجمعهم لأيّامهم، وكان أكمل القوم "[18] وهو إلمامٌ يُؤهّله للبحث الموضوعي في كتاب الله تعالى؛ إلاّ أن كتابه أثار نقَدَ معاصريه إذ ظنّوا أن فيه لونا من التفسير بالرأي. وقد أورد ابن النديم في الفهرست من الدراسات القرآنية: مجاز القرآن، وغريب القرآن، ومعاني القرآن، ولم يبق منها إلا مجاز القرآن، وقد قام بتحقيقه من أجل الحصول على درجة الدكتوراه محمد فؤاد سزكين، وأخرجه سنة 1954، بتصدير أمين الخولي.

ظروف تصنيف الكتاب

ذكرت كتب التّراجم القديمة الدّوافع التي جعلت أبا عبيدة يصنّف كتابه، بل وروتها على لسانه، قال: أرسل إليّ الفضل بن الرّبيع إلى البصرة في الخروج إليه، فقدمت عليه، وكنت أخبر عن خبره، فأذن لي فدخلت عليه، وهو في مجلس له طويل عريض، فيه بساط واحد قد ملأه، وفي صدره فرش عاليّة لا يُرتقى إليها إلاّ على كرسيّ، وهو جالس عليها، فسلّمت بالوزارة، فردّ وضحك إليّ، واستدناني حتّى جلست مع [ـه على] فُرشه، ثمّ سألني وألطفني وبسطني وقال: أنشدني، فأنشدته من عيون أشعار أحفظها جاهليّة، فقال لي: قد عرفت أكثر هذه، وأريد من مُلَح الشعر، فأنشدته فطرب وضحك، وزاد نشاطه. ثمّ دخل رجل في زيّ الكُتّاب، له هيئة، فأجلسه إلى جانبي وقال له: أتعرف هذا ؟ قال: لا، قال: هذا أبو عبيدة علاّمة أهل البصرة، أقدمناه لنستفيد من علمه، فدعا له الرّجل وقرّظه لفعله هذا وقال لي: كنت إليك مشتاقا، وقد سُئلت عن مسألة أفتأذن لي أن أعرّفك إيّاها ؟ قلت: هات، قال: قال الله عزّ وجلّ: ﴿ طَلْعُهاَ كأَنَّه رُؤوسُ الشَّياطِين ﴾ الصافّات. 65 وإنّما يقعُ الوعْدُ والإيعادُ بما قد عُرِفَ مثلُه. وهذا لم يُعرَف. فقلت: إنّما كَلَّمَ الله العربَ على قدرِ كلامهم، أَمَا سمعتَ قول امرئ القيس:

أيقتلني والمَشْرَفِيُّ مُضاجِعي ومَسْنونةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أغْوالِ

وهم لم يرَوْا الغُولَ قط. ولكنّهم لما كان أمْرُ الغول يَهُولُهم أُوعِدوا به. فاستحسنَ الفضلُ ذلك، واستحسنَه السائلُ. واعتقدت من ذلك اليوم أن أضع كتابا في القرآن في مثل هذا وأشباهه، ولما يحتاج إليه من علمه. ولما رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سمّيته " مجاز القرأن." وسألت عن الرّجل فقيل لي: هو من كتّاب الوزير وجلسائه، يقال له إبراهيم بن إسماعيل بن داود الكاتب العَبَرْتاني."[19]

ما يستفاد من دوافع تأليف الكتاب

والذي يفهم من هذه القصّة أنّ الدافع إلى وضع هذا الكتاب هو التباس فهم آية على بعض الذين حضروا مجلس الفضل بن الرّبيع، وقد دفعني ذلك إلى محاولة الوقوف على ما ذكره أبو عبيدة عند تفسيره الآية في كتابه المجاز، ولما عدت إلى الكتاب عجبت أشدّ العجب لكونه لم يذكر الآية ولم يتعرّض لتفسيرها، وهو سلوك غريب من الرّجل، ومع ذلك فقد تبيّن لي من هذه الرواية الآتي:

. إنّ معاصريه، وإن هم كانوا قريبي عهد بصدر الإسلام، كانت الكثير من معاني القرآن تخفى عليهم، وأنّ في مثل هذا الجهل بمذاهب العرب في القول خطورة، لأنّه يؤدّي إلى تحريف مدلول النص وفهم معاني القرآن، وهو ما جعله يبادر إلى تأليف هذا الكتاب، وكان هذا مثل هذا الخوف هو ما حفّز مجموعة من العلماء سبقوه، خافوا على العربيّة من اللحن والتحريف، وعلى رأسهم أبو الأسود، عندما وضعوا قواعد وضوابط، صارت لاحقا علوما، صانوا بها العربيّةمن كلّ تحريف أو تزييف.

. كلّما ابتعدنا عن صدر الإسلام، واستحكم الاتصال بالأعاجم، اشتدَّ الطلبُ على معرفة المعنى القرآني والسؤال عنه، والسائل، في هذه الرواية، كاتبٌ من أهل صناعة البيان استوقفه من التشبيه في الآية الكريمة أنّ المشبَّهَ به غير محسوس، لذلك أحاله أبو عبيدة، على بيت شعري جاهليّ ليُؤَكّد أن التصوير فيه من جنس التصوير القرآني، وليبيّن بذلك طريقة التوصل إلى فهم المعاني القرآنية، وأنّها تكون باحتذاء أساليب العرب في الكلام، وسُنَنِهم في طرق الكشف عن المعاني.

. لعب الشّعر دورا رئيسا في الكشف عمّا أُشكل من معاني القرآن، وقد سار أبو عبيدة في هذا على نهج حبر الأمّة عبد الله بن عبّاس الذي قيل عنه: " كان ابن عبّاس يقول: إذا أشكل عليكم الشّيء من القرآن فارجعوا فيه إلى الشّعر فإنّه ديوان العرب. وكان يُسأل عن القرآن فينشد الشّعر."[20]

. يمثّل جواب أبي عبيدة للسّائل، ثم تصنيفه كتاب مجاز القرآن إدراكا مبكّرا منه لعاقبة جهل النّاس بطريقة العرب في القول، فحفّزه هذا على تبيين الأساليب التي يستعملها القرآن في التعبير عن أغراضها وفيها الكثير ممّا لا يتّفق مع القواعد التي شاعت في مجالس العلماء، وإن هي اتّفقت مع الأسلوب العربي وطريقة التعبير عند العرب، لذلك راح يبيّن تلك الأساليب ويستشهد لها بالآثار القديمة الصحيحة.

مفهوم المجاز في كتاب أبي عبيدة

يفهم ممّا ذكره أبو عبيدة في كتابه أنّ المجاز عنده هو العدول عن المعنى الحقيقي والطبيعي للألفاظ في معانيها ونظمها إلى معنى آخر فيه مُجاوَزة وتجوُّز. وإن الوُقوف عند دَوران كلمة مجاز في الكتاب، وإن تعدّدتْ في بعض المواضع دلالتها، فإن السَّعَة اللغوية يقصد بها المعْبَر إلى الفنون الأسلوبية في القرآن. فالمجاز طُرُقٌ يَسلكُها القرآنُ في أدائه البياني أي في تعابيره.

ولا علاقة لكلمة المجاز عنده بالمصطلح البلاغي وحده، فهي تعني الدلالة الدقيقة للصيغ التعبيرية المختلفة في القرآن؛ مُستشهدا عليها بما يُشبهها من أنماط أساليب العرب، ولذلك فالإحساس بضرورة التّعرّف على وجوه الحسن في أساليب القرآن والواردة في كلام العرب؛ جعل لموضوع المجاز مكانةً خاصّةً في الدراسات القرآنية والبحوث الإعجازية. وهو ما يفهم من كلام محمد فؤاد سزكين في مقدّمة تحقيقه لكتاب المجاز، قال: " ومهما كان الأمر فإنّ أبا عبيدة يستعمل في تفسيره للآيات هذه الكلمات: مجازه كذا، وتفسيره كذا، ومعناه كذا، وغريبه، وتقديره، وتأويله، على أنّ واحدة أو تكاد، ومعنى هذا أنّ كلمة المجاز عنده عبارة عن الطّرق التي يسلكها القرآن في تعبيراته، وهذا المعنى أعمّ بطبيعة الحال من المعنى الذي حدّده علماء البلاغة فيما بعد."[21]

ولما كان بحثنا هو الدّرس البلاغي كتاب مجاز القرآن فمن المفيد أن نذكر بأنّه قد تحدّث في كتابه عمّا اصطُلِح عليه لاحقا بالمجاز المرسل عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ وأرسلنا السّماء عليهم مِدْرارا ﴾ الأنعام. 06 قال: " مجاز السّماء هاهنا مجاز المطر، يقال: ما زلنا في سماء أي في مطر. وما زلنا نطأ السّماء أي أثر المطر. وأنّى أخذتكم هذه السّماء ؟ ومجاز أرسلنا أمطرنا."[22] ففي الآية مجاز مرسل كما هو ظاهر،وعلاقته المجاورة لأنّ المطر ينزل من جهة السّماء.

وذكر المجاز العقلي عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ والنّهار مبصرا ﴾ يونس 68 قال: " له مجازان أحدهما: أنّ العرب وضعوا أشياء من كلامهم في موضع الفاعل، والمعنى أنّه مفعول، لأنّه ظرف يفعل فيه غيره لأنّ النّهار لا يبصِر ولكنّه يبصر فيه الذي ينظر، وفي القرآن ﴿ في عيشة راضيّة ﴾ الحاقّة 21 وإنّما يرضى بها الذي يعيش فيها."[23] فأبو عبيدة هنا يشير إلى علاقة المجاز، وهي الزّمانيّة وذلك حين قال: لأنّه ظرف يفعل فيه غيره " فقد وصف النّهار بالإبصار على المجاز، لأنّ النّهار لا يبصر، وإنّما يبصر فيه النّاس. وفي الآية الثانيّة أسند ما حقّه أن يسند إلى المفعول إلى الفاعل، لأنّ العيشة تكون مرضيّة، لا راضيّة. قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ في عيشة راضيّة ﴾ الحاقّة. 21: " مجاز مرضيّة فخرج مخرج لفظ صفتها، والعرب تفعل ذلك إذا كان من السبب في شيء يقال: نام ليلُه وإنّما ينام هو فيه."[24]

منهج أبي عبيدة في الكشف عن مناحي المجاز في القرآن

بدأ أبو عبيدة كتابه بمقدمة عامة حدّد فيها منهجه، ومجال كلمة مجاز فيه؛ فبيّن أنّ طرق التعبير في القرآن لا تخرج عن المأثور من أساليب العرب، وقد " نزل القرآن بلسان عربيّ مبين، فمن زعم أنّ فيه غير العربيّة فقد أعظم القول "[25] ثم راح يسوق الأمثلة المفصّلة للبيان العربي؛ قال في مقدمة الكتاب: " قالوا: إنّما أُنزِل القرآن بلسانٍ عربيّ مبين، وتِصداق ذلك في آية من القرآن، وفي آية أخرى: ﴿ ومَا أَرسَلْنا مِنْ رسُولٍ إلاَّ بِلِسانِ قَومِه ﴾ إبراهيم. 4 فلم يحْتَج السلَف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبي أن يسألوا عن معانيه لأنّهم كانوا عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم عن المسألة عن معانيه، وعمّا فيه ممّا في كلام العرب من الوجوه والتّلخيص، وفي القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب، ومن الغريب، والمعاني."[26]

وبعد المقدمة يبدأ بشرح ما يراه من مجاز القرآن من بداية المصحف، مُشيرا إلى الحديث النبوي الشريف المناسب، مع ذكر الشاهد من مأثور الشعر أو النثر.

لهذا يمتاز منهجه بسعة الثقافة والحرية في فهْم النصوص، فاعتمد حِسَّه اللغويّ في استقرائه لمناحي المجاز، دون أن يلتزم القيود والضوابط التي فرضتها مدرستا البصرة والكوفة والبصرة لفهم النصوص العربية. وعُنِيَ في ضوء هذا التحرّر بالناحية اللغوية في القرآن، وأكثر من الاستشهاد على الآيات بالشعر العربي ممّا صرَفَه عن الاشتغال بالنص القرآني.[27]

وفي مجال كشف دقائق التعبير توسَّعَ في بيان الخصائص التعبيرية من استعارة وتشبيه وكناية وتقديم وتأخير وحذف وإضمار وتكرار؛ ليُثبت أنّ النصّ القرآني يحمل كلّ سمات الكلام العربي، وأنّ من يتصدّى لفهم هذا النص لابد أن يُلمّ بفقه العربية وأساليبها واستعمالاتها.

لذلك فاض كتاب المجاز بمأثور القول من منثور الكلام العربي ومنظومه، تأكيدا لقوله بأنّ العرب لم يكونوا في حاجة إلى كتابه المجاز في القرآن؛ لأنهم أعرف بأساليب القول في لغتهم.

المبحث الثاني: من مظاهر المجاز في القرآن من خلال الكتاب

أشرنا إلى أنّ المصطلحات البلاغية قد عرفتِ النور في أجواء الدراسات القرآنية في مراحلها الأولى، لذلك فإن مدلول المجاز عند أبي عبيدة انصرف إلى مجموعة من المعاني البلاغية التي نمت ونضجت مع الأيام، ومن المعاني البلاغية التي اختفت وراء مصطلح مجاز، ما يلي:

التشبيه والتمثيل

لم يفرّق علماء اللغة بين التّشبيه والتّمثيل عند التعريف بهما، قال ابن منظور في اللّسان: " الشّبه والشّبيه ... المثل وأشبه الشيء: ماثله ... وأشبهت فلانا وشابهته وأشتبه عليّ، وتشابه الشّيئان واشتبها: أشبه كلّ واحد منهما صاحبه ... والتّشبيه: التّمثيل."[28] ومذهب عدم التّفريق هو مذهب مجموعة من علماء البلاغة كابن الأثير، قال: " وجدت علماء البيان قد فرّقوا بين التّشبيه والتّمثيل، وجعلوا لهذا بابا مفردا، وهما شيء واحد لا فرق بينهما في أصل الوضع، يقال شبهت هذا الشّيء بهذا الشّيء، كما يقال: مثّلته به، وما أعلم كيف خفي ذلك على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه."[29]

والتّشبيه جار على ألسنة الشعراء منذ القديم، قال المبرد: " والتّشبيه جار كثير في الكلام، أعني كلام العرب، حتّى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم لم يُبْعِد."[30] لكنّهم ذكروه دون أن يقدّموا له تعريفا، ذكر صاحب العمدة أنّ بشار بن برد قيل له: بم فُقت أهل عمرك وسبقت أبناء عصرك في حُسن معاني الشّعر، وتهذيب ألفاظه ؟ قال: " لأنّي لم أقبل كلّ ما تورده عليّ قريحتي، ويناجيني به طبعي، ويبعثه فكري، ونظرت إلى مغارس الفِطن، ومعادن الحقائق ولطائف التّشبيهات، فسِرْت إليها بفكر جيّد وغريزة قويّة فأحكمت سبْرها وانتقيت حرّها، وكشفت عن حقائقها، واحترزت من مُتكلّفها، ولا والله ما ملك قيادي الإعجاب بشيء ممّا آتي به."[31] وقد دفعته هذه الرّوح إلى مغالبة كبار شعراء العصر الجاهلي ومحاولته مجاراتهم بل والتّفوّق عليهم، قال: " لم أزل منذ سمعت قول امرئ القيس في تشبيهه شيئين بشيئين في بيت واحد حيث يقول:

كأنّ قلوب الطّير رطبا ويابسا لدى وكرها العُنّاب والحشف البالي

أعمل نفسي على تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد حتّى قلت:

كأنّ مثار النّقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه."[32]

وللتّشبيه عند العلماء تعريفات كثيرة، منها ما قاله الباقلاّني، هو: " العقد على أنّ أحد الشّيئين يسدّ مسدّ الآخر في حسّ أو عقل."[33] وقال الطّوفي: هو " إلحاق أدنى الشّيئين بأعلاهما في صفة اشتركا في أصلها، واختلفا في كيفيّتها قوّة وضعفا."[34] وانتهى العلوي إلى أنّه من علوم البلاغة ذات الأثر البالغ في الكلام، قال: " والمختار عندنا كونه معدودا في علوم البلاغة، لما فيه من الدقّة واللّطافة وَلِما يكتسب به اللّفظ من الرّونق والرّشاقة، لاشتماله على إخراج الخفيّ

وإدنائه البعيد من القريب، فأمّا كونه معدودا من المجاز أو غير معدود، فالأمر فيه قريب من قريب، بعد كونه من أبلغ قواعد البلاغة وليس يتعلّق به كبير فائدة."[35]

ولما كان للتّشبيه مثل هذه المنزلة في كلام العرب، فقد ذكره أبو عبيدة في مواضع متفرّقة من كتابه، وعدّه من المجاز، من ذلك عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ نساؤُكم حرثٌ لكم ﴾ البقرة / 223 فيقول: كناية وتشبيه.[36]

وقوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فمنهم من يمشي على بطنه ﴾ النور45: " فهذا من التّشبيه، لأنّ المشي لا يكون على البطن، إنّما يكون لمن له قوائم فإذا خلطوا ما له قوائم بما لا قوائم له جاز ذلك كما يقولون: أكلت خبزا ولبنا ولا يقال: أكلت لبنا، ولكن يقال: أكلت الخبز."[37]

وقوله في عند تفسيره الآية ﴿ أَفَمنْ أُسِّسَ بُنيَانُه على تقوىً من الله ورضوانٍ خيْرٌ أمّن أُسِّسَ بنيانُه على شفَا جُرُفٍ هارٍ فانهارَ به في نار جهنم ﴾ التوبة. 109: " ومجاز الآية مجاز التّمثيل؛ لأنّ ما بنوه على التّقوى أثبت أساسا من البناء الذي بنَوْهُ على الكفر والنفاق، فهو على شفا جُرُف، وهو ما يُجرَفُ من سيول الأودية فلا يثبت البناء عليه.[38]

وسمّاه في مقام آخر المثل كما في قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فردّوا أيديهم في أفواههم ﴾ إبراهيم. 09: " مجازه مجاز المثل، وموضعه موضع كفُّوا عمّا أمروا بقوله من الحقّ ولم يؤمنوا به ولم يسلموا، ويقال: ردّ يده في فمه، أي أمسك إذا لم يجب."[39]

وذكره في موضع آخر مع التّشبيه، قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾ النحل. 26: " مجازه مجاز المثل والتّشبيه والقواعد: الأساس، إذا استأصلوا شيئا قالوا هذا الكلام، وهو مثل؛ القواعد واحدتها قاعدة، والقاعد من النّساء التي لا تحيض."[40]

وهذا كما هو ظاهر استعارة تمثيليّة لأنّ التّشبيه إنّما يقع في الحال والأمور المنتزعة[41] "
يعني أنّهم سوّوا منصوبات ليمكروا بها الله ورسوله، فجعل الله هلاكهم في تلك المنصوبات، كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالأساطين فأتى البنيان من الأساطين بأن ضعضعت فسقط عليهم السّقف وهلكوا."[42]

ممّا سبق يتبيّن أنّ صورة واضحة للتّشبيه لم ترتسم في ذهن أبي عبيدة؛ فمرّة يذكره مفردا، وأخرى يذكره مع الكناية، ومرّة ثالثة يذكره بمعنى المثل ولا يفرّق بينهما، وأحيانا يطلقه على ما

يعرف بالاستعارة التمثيليّة، وهذا التّذبذب في إطلاق المصطلح يوضّح أنّ الحدود بين هذه المصطلحات لم تحدّد على عصره وإنّما تكفّل بها علماء البلاغة الذين أتوا من بعده.

الاستعارة

الاستعارة ضرب من المجاز، وهي أجلّ صور البيان وأجملها، لأنّها تحقّق المبالغة التي مبناها التّشبيه، فإذا أريدت المبالغة في التّشبيه أمكن البلوغ إلى أقصى درجات المبالغة بإطلاق اسم المشبّه به على المشبّه على سبيل الاستعارة، فالمبالغة أهمّ أغراض الاستعارة، وهي التي تكسبها جمالا ورونقا، يقول الجرجاني: " أمّا الاستعارة فهي ضرب من التّشبيه ونمط من التّمثيل، والتّشبيه قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب وتدركه العقول، وتُستفتى فيه الأفهام والأذهان، لا الأسماع والآذان."[43] ومع ذلك " فالتّشبيه ليس هو الاستعارة، ولكن الاستعارة كانت من أجل التّشبيه، وهو كالغرض فيها، وكالعلّة والسبّب في فعلها، فإن قلت: كيف تكون الاستعارة من أجل التّشبيه، والتّشبيه يكون ولا استعارة، وذلك إذا جئت بحرفه الظّاهر فقلت: " زيد كالأسد. فالجواب أنّ الأمر كما قلت، ولكن التّشبيه يحصل بالاستعارة على وجه خاصّ وهو المبالغة."[44]

وقد بقيت هذه الحدود التي رسمها الجرجاني للاستعارة هي السّائدة عند علماء البلاغة، لا يبتعدون عنها كثيرا، وهذا ما نجده عند الطوفي عند تبيينه لحدّها، قال: هي " استعمال اللّفظ في غير ما اصطلح عليه في وضع التّخاطب، للمبالغة في التّشبيه، وبهذا القيد تنفصل عن سائر وجوه المجاز، إذ ليس الغرض بها ذلك."[45]

أمّا أبو عبيدة فلم يذكر في كتابه الاستعارة، وأطلق لفظ " مجاز " في معناها، بل وجاء الحديث عنها ضمن كلمة مجاز، من ذلك قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى ﴾ الأنفال. 17: " مجازه: ما ظفرت ولا أصبت ولكنّ الله أيّدك وأظفرك وأصاب بك ونصرك ويقال: رمى الله لك، أي نصرك الله وصنع لك."[46] أي أنّه استعار الرمي للنصرة والغلبة.

ومثله ما قاله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ويُثبِّتَ به الأقدامَ ﴾ الأنفال. 11 مجازُه: يُفرغُ عليهم الصبر، ويُنزِّلُه عليهم؛ فيثبتون لعدوِّهم.[47]

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إلاَّ هوَ آخذٌ بناصيتها﴾ هود. 56 مجازه: إلاّ هو في قبضته ومُلكه وسلطانه.[48]

الكناية

ذكر سيبويه الكناية في باب " هذا باب من إذا أردت أن يضاف لك من تسأل عنه " قال: " لأنّ ذلك كناية عن غير الآدميّين."[49] وذكرها في " باب الألقاب " قال: " وإنّما جاء هذا مفرّقا والأوّل لأنّ أصل التسميّة والذي وقع عليه الأسماء، أن يكون للرّجل اسمان: أحدهما مضاف، والآخر مفرد أو مضاف، ويكون أحدهما وصفا للآخر؛ وذلك الاسم والكنية."[50]

والكناية عند علماء البيان أن يعبر عن شيء بلفظ غير صريح في الدلالة عليه لغرض من الأغراض كالإبهام على السامع أو لنوع فصاحة، قال الزركشي بـ " أنّ العرب تعدّ الكناية من البراعة والبلاغة، وهي عندهم أبلغ من التصريح."[51] وعرّفها بالقول: " والكناية عن الشيء الدلالة عليه من غير تصريح باسمه."[52]

وهي عند أبي عبيدة في كتابه؛ ما يفهم من الكلام ومن السياق من غير أن يذكر اسمه صريحا في العبارة فهي تستعمل قريبة من المعنى البلاغي كما في قوله تعالى: ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ البقرة. 223 فهو كناية وتشبيه[53] وفي قوله تعالى: ﴿ أو جاء أحد منكم من الغائط ﴾ المائدة. 6 كناية عن إظهار لفظ قضاء الحاجة في البطن،[54] وكذلك قوله تعالى: ﴿ أو لامستم النساء ﴾ المائدة. 6 كناية عن الغشيان.[55]

ذكر أبو عبيدة عند تفسير قوله تعالى: ﴿ لعلّك باخع نفسك ﴾ الشعراء. 04 أنّ هذا المصطلح جاء في كلام أبي عمرو بن العلاء، قال: " وزعم يونس عن أبي عمرو أنّ خاضعين ليس من صفة الأعناق وإنّما هي من صفة الكناية عن القوم التي في آخر الأعناق فكأنّه في التّمثيل فظلّت أعناق القوم في موضع "هم " والعرب قد تترك الخبر عن الأوّل وتجعل الخبر للآخر منهما."[56]

وقد نصُّ عليها في كتابه بطرق مختلفة قريبة في مجملها من مدلول المصطلح البلاغي. قال في قوله تعالى: ﴿ كلاّ إذا بلغت التراقيَ ﴾ القيامة. 26: صارت النّفس من تراقيه.[57] وفي قوله تعالى: ﴿ حتى توارَتْ بالحجاب ﴾ ص. 36 المعنى للشّمس وهي مضمرة.[58]

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أو جاء أحدٌ منكم من الغائط ﴾ المائدة. 06 كناية عن إظهار لفظ قضاء الحاجة في البطن، والغائط: الفيح من الأرض المتصوّب وهو أعظم من الوادي.[59] أي

أن قوله هذا إشارة إلى الكناية عن قضاء الحاجة. وكذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ أو لامستُم النساء ﴾ كناية عن الغشيان.[60]

ويلاحظ أن أبا عبيدة لم يَحد عن موقف اللغويّين في تفسير الاستعارات والتّشبيهات المتعلّقة بالذّات الإلهية أو بالعقيدة، فيكتفي بالمعنى المجازي القريب خوفا من الوقوع في التجسيم، لذلك نجده يُفسر قوله تعالى: ﴿ يدُ الله مغلولة ﴾ المائدة. 64 بقوله: خيْر الله مُمْسَك.[61]

التقديم والتأخير

لم تفصّل المصادر القديمة الحديث عن التقديم والتأخير باعتباره أسلوبا بلاغيّا، بل جاء الحديث عنه ضمن إشارات لا تف بالغرض، من ذلك ما قاله العسكري في كتاب الصّناعتين عند حديثه عن كيفيّة نظم الكلام والقول في فضيلة الشّعر وما ينبغي استعماله في تأليفه، قال: " وتجد اللّفظة لم تقع في موقعها ولم تصل إلى مركزها ولم تتصل بسلكها، وكانت قلقة في موضعها نافرة عن مكانها فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها."[62] ولذلك " ينبغي أن ترتّب الألفاظ ترتيبا صحيحا، فتقدّم منها ما كان يحسن تقديمه وتؤخّر منها ما يحسن تأخيره ولا تقدّم منها ما يكون التّأخير به أحسن ولا تؤخّر منها ما يكون التّقديم به أليق."[63]

وقد ذكر العلوي الحال المناسب للتقديم، قال: " اعلم أنَّه إذا كان مطلع الكلام في إفادة معنى من المعاني ثم يجئ بعده ذكر شيئين وأحدهما يكون أفضل من الآخر وكان المفضول مناسبا لمطلع الكلام، فأنت ههنا بالخيار، فإن شئت قدّمت المفضول لما لهُ من المناسبة لمطلع الكلام، وإن شئت قدّمت الفاضل لما لهُ من رتبة الفضل."[64]

لذلك يمكن القول إن لكل لفظ مكانه اللائق ولا نجد لفظا من الألفاظ يتقدم أو يتأخر إلا لغرض ومقصد معين ولنكتة بلاغية زادت التركيب جمالا وأكسبته رونقا وبهاء.

والتقديم والتأخير ظاهرة لطيفة، وفن بلاغي رفيع في التعبير، ويعتبر دليلا واضحا على الإعجاز البياني في القرآن الكريم، وهذا ما تفطن إليه عبد القاهر الجرجاني بحسه المرهف وذوقه البلاغي الرفيع حين وصفه بقوله: " هو باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرّف، بعيد الغاية، لايزال يفترّ لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك، ولطف عندك أن قُدِّم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان."[65]

عدّه الزّركشي [ت 794 هـ] في كتابه البرهان في علوم القرآن " أحد أساليب البلاغة، فإنّهم أتوا به دلالة على تمكّنهم في الفصاحة، وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق."[66] وعرّفه الطّوفي بأنّه: " جعل اللّفظ في رتبة قبل رتبته الأصليّة، أو بعدها، لعارض اختصاص، أو أهميّة، أو ضرورة."[67]

ذكر أبو عبيدة أسلوب التّقديم والتّأخير من دون تعليل، وإن كان قد نصّ على أنّه من مذاهب العرب في كلامها وذلك عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ أحسن كلّ شيء خلقه ﴾ السجدة. 07. قال: مجازه: أحسن خلق كلّ شيء، والعرب تفعل هذا يقدّمون ويؤخّرون.[68]

وذكر في مقدّمة كتابه أنّ " من مجاز المقدم والمؤخر، قال تعالى: ﴿ فإذا أنزلْنا عليها الماءَ اهتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ فصلت. 38 أراد ربت واهتزت. وقال: ﴿ لم يَكَدْ يَراها ﴾ النور. 40 أي لم يَرها ولم يكد.[69]

الاستفهام

ومن الأساليب الإنشائيّة التي وقف عندها أبو عبيدة في مجاز القرآن أسلوب الاستفهام، ونصّ على أنّه يخرج في بعض الآيات عن معانيه الحقيقيّة، من ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ البقرة. 30: " جاءت على لفظ الإستفهام، والملائكة لم تستفهم ربّها، وقد قال تبارك وتعالى: ﴿ إنّي جاعل في الأرض خليفة ﴾ البقرة. 30 ولكن معناها معنى الإيجاب؛ أي انّك ستفعل."[70]

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ﴾ البقرة 170: " الألف ليست ألف الاستفهام أو الشكّ، إنّما خرجت مخرج الاستفهام تقرير بغير الاستفهام ﴿ أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ﴾ أي: وإن كان آباؤهم."[71]

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ أأنت قلت للنّاس أتّخذوني وأمّي ﴾ المائدة. 116: " هذا باب تفهيم، وليس باستفهام عن جهل ليعلمه، وهو يخرج مخرج الاستفهام، وإنّما يراد به النّهي عن ذلك ويتهدّد به، وقد علم قائله أكان ذلك أم لم يكن، ويقول الرّجل لعبده: أفعلت كذا ؟ وهو يعلم أنّه لم يفعله ولكن يحذّره."[72]

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ ويوم يحشرهم جميعا ثمّ يقول للملائكة أهؤلاء إيّاكم كانوا يعبدون ﴾ سبأ. 40: " مجاز الألف هاهنا مجاز الإيجاب والإخبار والتّقرير، وليس بألف الاستفهام بل هي تقرير للذين عبدوا الملائكة وأبس لهم."[73]

الايجاز

لما كان هدف أبي عبيدة هو الإبانة عن كيفيّة التوصّل إلى فهم المعاني القرآنيّة باحتذاء أساليب العرب في الكلام، أي الكشف عن الطّرق التي يسلكها القرآن في تعبيراته؛ مُستشهدا عليها بما يُشبهها من أنماط أساليب العرب، نجده يتعرّض للإيجاز، ويسمّيه مجاز المكفوف عن خبره، ويبيّن أنّه من مذاهب العرب في كلامها، يستعملونه بغرض التّخفيف ويشترطون فيه علم السّامع به. فعند تفسيره قوله تعالى: ﴿ ولو أنّ قرآنا سُيِّرت به الجبال أو قُطِّعت به الأرض أو كُلِّم به الموتى ﴾ الرعد. 31، قال: " مجازه مجاز المكفوف عن خبره، ثمّ استؤنفت، فقال: ﴿ بل لله الأمر جميعا ﴾ فمجازه: لو سُيِّرت به الجبال لسارت، أو قطعت به الأرض لتقطّعت، ولو كلم به الموتى لنشرت، والعرب قد تفعل مثل هذا لعلم المستمع به استغناء عنه، واستخفافا في كلامهم."[74] وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ ويتفكّرون في خلق السّموات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلا ﴾ يقول: " العرب تختصر الكلام ليخفّفوه لعلم المستمع بتمامه، فكأنّه في تمام القول: ويقولون: ربّنا ما خلقت هذا باطلا."[75]

الاطناب

ذكر أبو عبيدة الإطناب، لكنّه لم يسمّه باسمه بل سمّاه مجاز المكرّر للتّوكيد، قال: " ومن مجاز المكرّر للتّوكيد قال: ﴿ رأيت أحد عشر كوكبا والشّمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾[76] أعاد الرّؤية،. وقال: ﴿ أولى لك فأولى ﴾[77] أعاد اللّفظ. وقال: ﴿ فصيّام ثلاثة أيّام في الحجّ وسبعةٍ إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ﴾[78] وقال: ﴿ تبّت يدا أبي لهب وتبَّ ﴾[79] "[80]

الالتفات

رغم أنّ الالتفات أسلوب بلاغيّ قديم في كلام العرب، إلاّ أنّ إطلاق هذا الإسم على هذا الأسلوب البلاغي المعروف تأخّر، ولعلّ الأصمعي هو أوّل من أطلق هذا الاسم دون أن يقدّم تعريفا له، فقد ذكر أبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين بسنده عن محمد بن يحي الصّولي أنّ الأصمعي سأله: " أتعرف التفاتات جرير، قلت:لا فما هي، قال:

أتنسى إذ تُودّعنا سُليمى بعُود بشَامةٍ سُقِي البشام

ألا تراه مقبلا على شعره، ثمّ التفت إلى البشام[81] فدعا له. وقوله:

طَرِب الحمام بذي الأراك فشاقني لا زلت في عَلَلٍ وأيكٍ ناضر

فالتفت إلى الحمام فدعا له."[82]

وهو من الأساليب المعروفة في كلام العرب وشعرهم منذ العصر الجاهلي، قال الزّمخشري في الكشّاف: " وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات[83] في ثلاثة أبيات:

تطاول ليلك بالأثمد ونام الخلِيُّ ولم ترقُدِ

وبات وباتت له ليلة كلَيْلَةِ ذي العائر الأرمد

وذلك من نبإٍ جاءني وخُبِّرْتُه عن أبي الأسود

وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرّفهم فيه، ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطريّة لنشاط السّامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختصّ مواقعه بفوائد..."[84]

عدّ ابن المعتزّ [ت 296 هـ] الالتفات أوّل محاسن الكلام بعد فنون البديع الخمسة، وعرّفه بالقول: " هو انصراف المتكلّم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبهه ذلك، ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر."[85]

وعرّفه قدامة بن جعفر [ت 337 هـ] بالقول: " وهو أن يكون الشّاعر آخذا في معنى فكأنّه يعترضه إمّا شكّ فيه أو ظنّ بيان رادا يرد عليه قوله أو سائلا يسأله عن سببه فيعود راجعا إلى ما قدّمه فإمّا يذكر سببه أو يحلّ الشكّ فيه."[86]

كما عرّفه الطّوفي بالقول: " وهو الرّجوع عن أسلوب من أساليب الكلام إلى غيره، ومن فوائده: تطريّة سمع السّامع وإيقاظه للإصغاء، فأنّ اختلاف الأساليب أجدر بذلك من الأسلوب الواحد."[87] وعدّ هذا الأسلوب من شجاعة العربيّة.[88]

وقال العلوي في الطراز: " ومعناه [أي الالتفات] في مصطلح علماء البلاغة، هو العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأوّل." و" الالتفات من أجلّ علوم البلاغة وهو أمير جنودها، والواسطة في قلائدها وعقودها، وسميّ بذلك أخذا له من التفات الإنسان يمينا

وشمالا، فتارة يقبل بوجهه وتارة كذا، وتارة كذا، فهكذا حال هذا النّوع من علم المعاني، فإنّه في الكلام ينتقل من صيغة إلى صيغة، ومن خطاب إلى غيبة، ومن غيبة إلى خطاب إلى غير ذلك من من أنواع الالتفات ... وقد يلقّب بشجاعة العربيّة، والسّبب في تلقيبه بذلك، هو أنّ الشّجاعة هي الإقدام، والرّجل إذا كان شجاعا فإنّه يرد الموارد الصّعبة، ويقتحم الوُرَط العظيمة حيث لا يردها غيره، ولا يقتحمها سواه، ولا شكّ أنّ الالتفات مخصوص بهذه اللغة العربيّة دون غيرها."[89]

ذكر أبو عبيدة الالتفات في مواضع متفرّقة من كتابه، وعدّه من المجاز لكنّه لم يسمّه باسمه، بل قال عنه: " والعرب قد تخاطب فتخبر عن الغائب والمعنى للشّاهد فترجع إلى الشّاهد."[90] وعلّق على الآية الكريمة ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم ﴾ التوبة. 01 قائلا: " ثمّ خاطب شاهدا فقال: ﴿ فسيحوا في الأرض ﴾ التوبة 02. مجازه: سيروا وأقبلوا وأدبروا، والعرب تفعل هذا."[91]

ومن مجاز ما جاء خبره عن غائب ثمّ خوطب الشّاهد، قال: ﴿ ثمّ ذهب إلى أهله يتمطّى. أولى لك فأولى ﴾ القيامة. 33. 34."[92]

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ يونس. 01: " ... ومجاز " آيات " مجاز أعلام الكتاب وعجائبه، وآياته أيضا: فواصله، والعرب يخاطبون بلفظ الغائب وهم يعنون الشّاهد."[93]

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ ألم. ذلك الكتاب ﴾ البقرة. 01: " مجازه: آلم هذا القرآن، وقد تخاطب العرب الشّاهد فتُظهِر له مخاطبةَ الغائب." وقال في مقام آخر: " ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الغائب ومعناها للشّاهد، قال: ﴿ ألم. ذلك الكتاب ﴾ مجازه: ألم هذا القرآن. ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشّاهد، ثم تركت وحوّلت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب، ﴿ حتّى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم ﴾ يونس. 22. أي بكم.[94]

خاتمة

وخلاصة القول فهذه بعض المباحث المتعلّقة بإشارات إلى قضايا بلاغيّة ذكرها أبو عبيدة في مجاز القرآن، وتبيّن لنا من هذه المباحث الأتي:

01 . ينطوي استعمال أبي عبيدة للفظ مجاز عدّة مرام حسب الأنماط التعبيرية الواردة في الكتاب، ولعلّ أبرزها هو أن التّسميّة لغوية وليست اصطلاحية. وعليه فالمجاز، عنده، ممّر لمعرفة أساليب العرب؛ ومن ثمّ فهو تفسير وتأويل.

02 . لم تكن كلمة مجاز عنده ذات مدلول محدّد، لذلك كان يستعمل في تفسيره للآيات هذه الكلمات: " مجازه كذا " و " تفسيره كذا "، و " معناه كذا "، و " غريبه كذا "، و " تقديره كذا "، و "تأويله كذا" على أن معانيها واحدة أو تكاد أن تكون كذلك، ومعنى هذا أن المراد بالمجاز عنده هو الطرق التي يسلكها القرآن في تعبيراته، وهو معنى أوسع من المعنى الذي حدده علماء البلاغة لهذه الكلمة فيما بعد.

03 . ساهم مساهمة فعّالة في إثراء معجم المصطلحات البلاغيّة، إذ الكثير من المصطلحات التي ذكرها في كتابه مضافة إلى المجاز هي التي استقرّ على غالبيّتها علماء البلاغة الذين جاؤوا من بعده.

04 . كان في اعتماده الاتجاه اللغوي في التفسير السبب فيما تعرّض له هذا الكتاب من نقد معاصرين له، لأنّ صاحبه أثار حفيظتهم إذ م يتقيّد بالمأثور عن السلف من المفسرين، وتعامل مع البيان القرآني مرتكزا في فهمه له على فقهه باللغة، وسعيه إلى النّفاذ إلى خصائص التعبير فيها.

05 . ما لبث هذا الاتجاه في التفسير أن أصبح اتجاها متميزا له منزعه الخاص وأسلوبه المتفرد، وقدرته البالغة على التحليل الذي لا يدع معه النص مغلقا أو مطويّا على نفسه دون الاستفادة من كل ما فيه من إيثار لفظة على أخرى أو حرف على حرف، وهو ما يجعلنا نقول إن محاولة أبي عبيدة فتحت منافذ غير مسبوقة على البحث في لغة القرآن وأسلوبه.

لذلك فمجاز القرآن كان منطلقا لمدرسة في التفسير عدتُّها الأولى اللغة بالعربية وأساليبها، وهو مرحلة متقدّمة في بحث قضية الإعجاز، مكتفيا بالتدليل على عربية القرآن تدليلا عميقا.

هوامش:

[1] ابن تيميّة: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، تقيّ الدّين الحراني الدمشقي. الإيمان. خرّج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي. ط 05. 1996. ص 73 . 74.

[2] ابن خير: محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي، أبو بكر. فهرسة ابن خير الإشبيلي.. تحقيق محمد فؤاد منصور. دار الكتب العلميّة. بيروت. ط 01. 1998. ص 54.

[3] الزبيدي: محمد بن الحسن، أبو بكر. طبقات النحويّين واللغويّين. تح محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. مصر. ط 02. ص 176.

[4] نفسه. ص 73.

[5] أبو عبيدة: معمر بن المثنّى. مجاز القرآن. تحقيق محمد فؤاد سزكين. مكتبة الخانجي. القاهرة. ط 01. من مقدمة المحقق. 01 / 18 . 19.

[6] الزبيدي. السابق ص 176.

[7] نفسه. ص 176.

[8] القفطي: علي بن يوسف، جمال الدين أبي الحسن. إنباه الرواة على أنباه النّحاة. تح محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر العربي. القاهرة. ومؤسسةالكتب الثقافيّة. بيروت. ط 01. 1986. 03 / 278.

[9] ابن خلكان: أحمد بن محمد بن أبي بكر. وفيات الأعيان. تح إحسان عباس. دار صادر. بيروت. د ت. 05 / 235.

[10] ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم، أبو محمد. المعارف. تحقيق ثروت عكاشة. دار المعارف. مصر. ط 04. ص 543.

[11] أبو الطيّب اللّغوي: عبد الواحد بن علي. مراتب النّحويّين. تح محمد أبو الفضل إبراهيم. مكتبة نهضة مصر. ص 45.

[12] وفيات الأعيان. 05 / 237. وانظر الفهرست لابن النّديم. ص 59.

[13] القفطي. إنباه الرواة على أنباه النّحاة. 03 / 281. وانظر الفهرست لابن النديم ص 59.

[14] مجاز القرآن. من مقدمة المحقق 01 / 11.

[15] أبو الطيّب اللغوي. مراتب النّحويّين. ص 45.

[16] الزبيدي. طبقات النحويّين واللغويّين. ص 176.

[17] النديم: أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب، أبو الفرج. الفهرست. تحقيق رضا تجدّد. ط 1. بيروت. دار الكتب العلمية. 1996. ص58 – 59. وانظر القفطي. إنباه الرواة على أنباه النّحاة. 03 / 285. ووفيات الأعيان. 05 / 140.

[18] مراتب النّحويّين. ص 44.

[19] ذكرت هذه القصّة في الكثير من كتب التّراجم كوفيات الأعيان لابن خلكان. ومعجم الأدباء لياقوت الحموي. والانباه على أنباه النّحاة للقفطي بألفاظ متقاربة، ومن الإنباه نقلنا ما أثبتناه. انظر 03 / 277 . 287.

[20] المبرد: محمد بن يزيد، أبو العباس. الفاضل. تح عبد العزيز الميمني. دار الكتب المصرية. ط 02. 1995. ص 10.

[21] مجاز القرآن. من مقدمة المحقّق. ص 19.

[22] مجاز القرآن. 01 / 186.

[23] نفسه. 01 / 279.

[24] نفسه. 02 / 268.

[25] نفسه. 01 / 17.

[26] نفسه. 01 / 08.

[27] نفسه. من مقدمة المحقق. 1 / 19.

[28] لسان العرب. 04 / 2189. مادة: شبه.

[29] ابن الأثير: نصر الله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم، أبو الفتح ضياء الدّين. المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر. تح محمد محي الدين عبد الحميد. المكتبة العصريّة. صيدا . بيروت. 1995. 02 / 05.

[30] المبرد: محمد بن يزيد، أبو العباس. الكامل. تحقيق محمد أحمدالدّالي. مؤسسة الرسالة. لبنان. ط 03. 1997. 02 / 996.

[31] ابن رشيق: الحسن، أبو عليّ. العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده. تح محمد محي الدّين عبد الحميد. دار الجيل. بيروت. د ت. 02 / 239.

[32] الأصبهاني: علي بن الحسين، أبو الفرج. الأغاني. تح إحسان عباس وإبراهيم السعّافين وبكر عباس. دار صادر. بيروت. ط 03. 2008. 03 / 136

[33] الباقلاّني: محمد بن الطيّب، أبو بكر. إعجاز القرآن. تح أحمد صقر. دار المعارف. مصر. 02 / 263.

[34] الإكسير في علم التّفسير. ص 168.

[35] العلوي: يحي بن حمزة بن علي بن إبراهيم. كتاب الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. مطبعة المقتطف. مصر. 1914.: 01 / 266

[36] مجاز القرآن. 01 / 73.

[37] نفسه. 02 / 68.

[38] نفسه. 01 / 269.

[39] نفسه. 01 / 336.

[40] نفسه. 01 / 359.

[41] الطيّبي: الحسين بن عبد الله، شرف الدين. فتوح الغيب في الكشف عن الريّب. تح عمر حسن القيام. طبعة جائزة دبي الدوليّة للقرآن الكريم. د ت. 09 / 107.

[42] الزمخشري: محمود بن عمر، أبو القاسم جار الله. الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل.تحقيق الشيخين عادل أحمد عبد الموجود وعليّ محمد معوّض. مكتبة العبيكان. الرياض. ط 01. 1998. 03 / 432 . 433. 03 / 432 . 433.

[43] الجرجاني. كتاب أسرار البلاغة. تح محمود محمد شاكر. مطبعة المدني. جدّة. ط 01. 1991. ص 20.

[44] نفسه. ص 239.

[45] الإكسير في ي علم التّفسير. ص 147.

[46] مجازالقرآن. 01 / 244.

[47] نفسه. 01 / 242.

[48] نفسه. 01 / 290.

[49] الكتاب لسيبويه. 2 / 415.

[50] نفسه. 3 / 295.

[51] الزركشي: بدر الدين محمد بن عبد الله. البرهان في علوم القرآن. تح محمد أبو الفضل إبراهيم. مكتبة دار التراث. القاهرة. د ت. 2 / 300.

[52] نفسه. 2 / 300.

[53] مجاز القرآن. 1 / 73.

[54] نفسه. 01 / 155.

[55] نفسه. 1 / 155.

[56] نفسه. 2 / 83.

[57] مجاز القرآن. 02 / 278.

[58] مجاز القرآ،. 02 / 182.

[59] مجاز القرآن.01 / 155. وقال في تفسير قوله تعالى في سورة النساء 43: ﴿ أوْ على سَفَرٍ أو جاء أحدٌ منكم من الغائط ﴾ كناية عن حاجة ذي البطن، والغائط: الفيح من الأرض المتصوّب وهو أعظم من الوادي. انظر مجاز القرآن. 01 / 128.

[60] مجاز القرآن. 01 / 155

[61] نفسه. 01 / 170.

[62] العسكري. الحسن بن عبد الله، أبو هلال. كتاب الصّناعتين. طبع في مطبعة محمود بك. الأستانة. 1320 هـ. ط 01.. ص 101.

[63] كتاب الصّناعتين. ص 114.

[64] الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلم حقائق الإعجاز. 02 / 77.

[65] الجرجاني: عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، الإمام أبو بكر. دلائل الإعجاز. تح: محمود محمد شاكر. مطبعة المدني. القاهرة. ط 03. ص 106.

[66] البرهان في علوم القرآن. 03 / 233.

[67] الإكسير في علم التّفسير. ص 189.

[68] مجاز القرآن. 02 / 130.

[69] نفسه. 01 . 12.

[70] مجاز القرآن. 01 / 35.

[71] نفسه. 01 / 63.

[72] نفسه. 01 / 183 . 184.

[73] مجاز القرآن. 02 / 150.

[74] نفسه. 01 / 331.

[75] نفسه. 01 / 111.

[76] يوسف. 04.

[77] القيامة 34.

[78] البقرة. 196.

[79] المسدّ. 01.

[80] مجازالقرآن. 01 / 12.

[81] البشام: شجر ذو ساق وأفنان وورق صِغار أكبر من ورق الصّعتر ولا ثمر له، والبيت في اللسان:

أتذكر يوم تصقل عارضيها بفرع بشامة سُقِي البشام

اللسان 01 / 290. مادة: بشم.

[82] كتاب الصّناعتين. ص. 310 . 311.

[83] للعلماء اعتراض على العدد، إذخالفوا الزمخشري وقالوا بالتفاتين لا ثلاث. انظر ذلك في هامش 01 ج 01 ص 119 من تحقيق الكشاف.

[84] الزمخشري. الكشّاف. 01 / 119 . 120.

[85] ابن المعتزّ: عبد الله. كتاب البديع. تح المستشرق إغناطيوس كراتشقوفسكي. دار المسيرة. بيروت. 1982. ص 58.

[86] ابن جعفر: قدامة، أبو الفرج. كتاب نقد الشعر. مطبعة الجوائب. القسطنطينيّة. ط 01. 1302 هـ. ص53.

[87] الإكسير في علم التّفسير. ص 176.

[88] نفسه. ص 175.

[89] الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. 2 / 131 . 132.

[90] مجازالقرآن. 02 / 139.

[91] نفسه. 01 / 252.

[92] نفسه. 01 / 11.

[93] نفسه. 01 / 273.

[94] نفسه. 01 / 11.